الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

ص.ب : ٤١٢٣ بيروت ـ تلفون : ٢٣٢٨٣٢

AL-ADAB : Revue mensuelle culturelle

Beyrouth - Liban

B. P. : 4123 - Tél. : 232832

صاحبها ومديرها المسؤول

الدكتور سهيل إدريس

Propriétaire - Directeur

SOUHEIL IDRISS

سكرتيرة التحرير

عايدة مطرجي إدريس

Secrétaire de rédaction

AIDA M. IDRISS

*

الادارة

شارع سوريا ـ بناية درويش

الاشتراكات

في لبنان : ١٢ ليرة ■ في سوريا ١٥ ليرة
في الخارج : جنيهان استرلينيان او ستة دولارات
في أميركا : ١٠ دولارات ■ في الارجنتين ١٥٠ ريالا
الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ليرة لبنانية أو ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما
حوالة مصرفية او بريدية

الاعلانات

يتفق شأنها مع الادارة

العدد السابع ـ تموز (يوليه) ١٩٦٦ ـ السنة ١٤

أدب المقاومة في فلسطين المحتلة

بقلم غسان كنفاني

حين وقعت كارثة فلسطين عام ١٩٤٨ لم تخلف نفيرا جذريا في المجتمع العربي هناك من حيث العدد فقط ، ولكنها احدثت ايضا هزة جوهرية في التركيب الاجتماعي لعرب فلسطين المحتلة .

فاكثر من ثلاثة ارباع الـ ٢٠٠ الف عربي (١) الذين بقوا يومذاك في فلسطين بعد الاحتلال الصهيوني كانوا من سكان القرى . اما سكان المدن فقد هجرت الغالبية الساحقة منهم فلسطين ابان حرب الـ ١٩٤٨ او بعدها بقليل ، واحدث هذا الواقع اهتزازا صاخبا في جوهر المجتمع العربي هناك ، ذلك ان المدن لم تكن فقط مركز القيادة السياسية ولكن ايضا ، كما في معظم الاحوال ، مركز القيادة الفكرية الاساسي .

وهكذا فحين احكم الاغتصاب الاسرائيلي طوق الحكم العسكري والحصار والقوانين القمعية على التجمعات العربية في الريف، خصوصا في الجليل والمثلث والنقب ، كان الجو مهيأ له تماما ليس لتحقيق عملية كبح خطيرة لاي تيار سياسي او ادبي ينبثق من هناك فقط ، ولكن ايضا لزرع بذور في تلك التربة البكر لتيارات مشبوهة تدخل ضمن الحياة الصهيونية الادبية والسياسية في الارض المحتلة .

قبل كارثة ١٩٤٨ كان الادب العربي في فلسطين يشكل رافدا له قيمته في ذلك التيار الذي شغل النصف الاول من هذا القرن متخذا من القاهرة بالذات مركزا لانطلاقه ولانصبابه ، متاثرا بالاقلام المصرية واللبنانية والسورية التي كانت في ذلك الحين رائدة ثورية لمرحلة جديدة خاضها الادب العربي بعد نوم طويل ـ وحتى الادباء الفلسطينيون البارزون ظلوا لفترة طويلة يدينون بشهرتهم الى العواصم العربية التي كانت تفتح لهم صدورها وتتبناهم . لقد اسهمت عوامل كثيرة ليس هنا مجال تعدادها في حرمان فلسطين ادبيا من المركز الذي كانت تتمتع به سياسيا، ورغم ذلك فقد حقق الادب العربي هناك ، والذي ثبت فيما بعد انه كان رائدا قوميا من الطراز الاول ، ازدهاره اللائق .

وبعد النكبة لعبت الطلائع الفلسطينية المثقفة دورا بارزا في منافيها ونجحت رغم كل ما يقال في وضع اسس عريضة ، وفي وقت قصير نسبيا ، لادب عربي يمكن وصفه بادب المنفى اكثر مما ينطبق عليه وصف الادب الفلسطيني او ادب اللجوء ، وكان الشعر بالذات هو الرائد في هذا المجال ، وخلال سنوات المنفى الماضية حدث تطور نوعي بارز في طبيعة ذلك الادب ، فبعد النكبة مباشرة ، كما هو متوقع ، خيم الصمت اولا كانما هو نتيجة الذهول ، ثم انفجر شعر حماسي صاخب كانه يتجاوب مع الضمير الشعبي الذي ، اذ صحا من الذهول ، لجأ الى عدم التصديق . ولكن هذا الادب الذي كان يكتب في المنفى لم يكن يخضع لهذا النوع من التاثر فقط ـ نعني التاثر بالضمير الشعبي ـ ولكنه كان يخضع ايضا للتيارات الادبية العربية والاجنبية التي كانت تفعل فعلها العميق والسريع في طبيعة حياتنا الادبية ـ ونتيجة لهذا التاثر المزدوج خضع ادب المنفى لتغير نوعي ، في المضمون والشكل : فرضت التيارات الحديثة شخصيتها على التكنيك الادبي ، وفرضت

(١) عدد العرب الان في الارض المحتلة رسميا ٢٦٢ الف عربي ـ اي حوالي ١٠١ بالمئة من مجموع السكان.

المرحلة التي اجتازها الضمير الشعبي نفسها على المضمون : فبعد الشعر الحماسي الصاخب الذي شهدته اوائل الخمسينات حطم شعراء المنفى ـ على الاخص ـ العمود التقليدي من حيث الشكل ، وغادروا الحماس الذي وجدوا فيه ، لمرحلة من المراحل ، تكذيبا شخصيا للكارثة الى نوع فريد من الحزن العميق .

ودور الشعر الشعبي في حياة فلسطين منذ العشرينات دور بارز جدا . والواقع ان الفلسطينيين هم الذين نقلوا الى منافيهم الاهازيج والسحجات التي لا تكاد تخلو منها مظاهرة وطنية الان في الشرق العربي ، وقليل من الفلسطينيين من لا يعرف تلك القصيدة الشعبية النادرة التي خلفها لنا مناضل فلسطيني مجهول شنق في ١٩٣٦ والتي ما لبثت ان اضحت صلاة فلسطينية في طول الارياف وعرضها .

كان ذلك المناضل ينتظر تنفيذ قرار الشنق في الصباح حين كتب:

يا ليل ، خلي الاسير تا يكمل نواحو
راح يفيق الفجر ويرفرف جناحو
تا يتمرجح المشنوق في هبة رياحو
شمل الحبايب ضاع وتكسروا قداحو

***

يا ليل وقف نافضي كل حسراتي
يمكن نسيت مين انا
ونسيت آهاتي
يا حيف ! كيف انقضت بيديك ساعاتي ؟

***

لا تظن دمعي خوف ، دمعي على وطاني
وعاكمشة زغاليل بالبيت جوعاني
مين راح يطعمها بعدي ؟
واخواني تنين قبلي شباب عالمشنقة راحو ؟

***

وبكرة مرتي كيف راح تقضي نهارها ؟
ويلها علي او ويلها على صغارها !
يا ريتني خليت في ايدها سوارها
يوم الدعتني الحرب تا اشتري سلاحها !

***

وقد ظل الادب الشعبي بعد سقوط فلسطين عام ١٩٤٨ هو المكان الذي عبر فيه الشعب المغلوب على امره عن اشواقه . ويبدو انه حين كانت تتحول الاعراس في الجليل الى مظاهرات عنف تندفع من تحت لسان القوالين والشعراء الشعبيين لم يكن بوسع سلطات الاحتلال الصهيوني الا ان تفتح النار على المتظاهرين ، وقد اضطرت هذه السلطات فيما بعد الى تقديم عدد كبير من القوالين الى الحاكم العسكري ، وان تضع رقابة صارمة على تحركاتهم ..

ورغم ذلك فان الكلمة تفعل اكثر من فعل النار وتستطيع ان تخترق حصارها ، ففي ايار ١٩٥٨ اشتبك متظاهرون عرب في الناصرة مع شرطة العدو ، وتطور الاشتباك الى سقوط قتلى ، ولكن المتظاهرين الذين كانوا يشدون اكتافهم الى بعضها اندفعوا نحو صفوف الشرطة فمزقوها ودحرجوها على الطريق ، ومنذ ذاك تفتحت في الجليل ازهار اهزوجة جديدة :

.. والناصرة ركن الجليل فيك البوليس مدحولي
ارض العروبة تحررت دايان شيل وارحل
اخواننا في بور سعيد الهم تاريخ مسجلي
لو وقعت سابع سما عن ارضنا ما بنرحل

ويتجاوب الشعر الشعبي في الارض المحتلة ـ كما يحدث للشعر الفصيح كما سنرى ـ تجاوبا مذهلا مع الاوضاع والحركات العربية . فالابيات التي تاتي وراء الاهزوجة التي ذكرناها ، حين يتغير اللحن الجماعي ، تقول :

بن بللا اكبر زعيم كرسي التحرر اعتلي
يا غرب شو نابك ملعدوان غير الفل والبهدله

وحين صدرت اوامر موشيه دايان ، الذي كان انذاك وزيرا للزراعة، بمصادرة خمسة الاف دونم من الاراضي العربية في قرى نحف والبعنة ودير الاسد ، في منطقة اسمها الشاغور ، كانت اهزوجة اخرى تقود الصدام الدموي الذي حدث يومذاك :

نادى المنادي في الجليل ارض العروبة للعرب
شاغورنا مالك مثيل وترابك اغلى من الذهب
وبوحدة رجال الشاغور امر المصادرة انشطب
دايان امرك مستحيل بالوحدة راح ينشطب

وتاتي ، من ثم ، السحجة التقليدية :

هبت النار والبارود غنى
تسلم لينا يا بو خالد
يا حامي ظعنا
هبت النار من عكا للطيرة
تسلم لينا يا بو خالد
يا حامي هالديرة

ويتغير اللحن :

شديتلك جدعيتين بالكون منصوبة
جدعية تسبق هبوب الريح لو جاها
تسلم لينا يا بو خالد يا حامي العروبة
لو تسمع رج الزغاليط
نوبة على نوبة

***

ويمضي الشعر الشعبي الى ابعد من ذلك فيلوك في سخرية مريرة ، جارحة حتى العظم ، سمعة الخونة الذين يتعاملون مع العدو ، ويجعل منهم مثلا من امثلة الانحراف الوطني يخشون ، بعده ، المضي وحدهم في الاوساط العربية .

فعن الخونة الذين خاضوا مع اشكول الانتخابات في قائمة اعطيت اسم « المعراخ » يردد القرى العربية في الجليل والمثلث :

اما اتفرج يا سلام عالعجايب والتمام
شوفو فرسان المعراخ داخوا ومعلمهم داخ
شوفو سيف وشوفو دياب اخشاب بشكل النواب
مع جبر وعوض ونخله وسليم وباقي الشله
كل من يستنى سيدو اشكول تيحرك ايدو
اما شوفو يا اخوان عجايب تالي الزمان
زلم تجمع لهموم مع الظالم عالمظلوم
لازم نصفع على طول كراكوزات ليفي اشكول !

ان الشعر الشعبي في الارض المحتلة لم يكف ابدا عن القيام بدوره في المقاومة ، مستعملا كافة الوسائل التي يستطيع الذكاء الشعبي تجنيدها ليجعل منها سلاحا وقت الحاجة . وكثير من عرب الارض المحتلة يعتقدون ان مصرع الشاعر الشعبي المعروف باسم حميّد في ام الفحم في اواسط الخمسينات ، وهو على رأس تجمع ، كان محاولة للوقوف في وجه الاف المواويل والعتابا والميجانا التي كان يزرعها في طول الجليل وعرضه ضد الاغتصاب وحكم الاغتصاب .

ولكن اذا كان الشعر الشعبي يفرخ في البراري والبيوت والاعراس والمآتم ، ويكون في غالب الاحيان انتاجا جماعيا يتطور كلما انتقل من لسان الى اخر ، ويشكل ظاهرة ليس بالوسع مهما اعتمدت وسائل الارهاب والبطش وقفها ، وليس من الممكن العودة بها الى مصدر واحد ليحل به العقاب ويفرض عليه السكوت ـ اذا كان الحال هكذا مع الشعر الشعبي فانه ليس كذلك مع الانتاج الادبي الفصيح .

لقد ذكرنا فيما سبق الوسائل العديدة التي يعتمدها العدو للوقوف في وجه اية محاولة للتعبير ، عن طريق الانتاج الادبي ، عن حقيقة مشاعر عرب الارض المحتلة ومطالبهم .

وما دام بوسع العدو التحكم في نوع الكتب العربية التي ترغب

المؤسسات الخاصة في اعادة طبعها داخل الارض المحتلة فانه ، بالطبع، يستطيع ان يفرض مستوى معينا من الانتاج ، ومضمونا معينا ايضا .

وهذا الطوق الفولاذي الذي تضربه سلطات الاغتصاب حول الثقافة العربية لا يقتصر على اغراق النهم العربي للقراءة في ركام من الكتب الرخيصة والتافهة ، ومراقبة الانتاج الادبي العربي رقابة صارمة فقط ولكن ايضا في محاولة الحيلولة دون نشوء جيل عربي مثقف يكون نواة لانفتاح اوسع على الافاق الفنية المعاصرة .

فعدد (١) الطلاب العرب الثانويين في الارض المحتلة هو حوالي ٣ بالمئة من مجموع الطلاب اليهود ، فيما تقارب نسبة العرب الذين هم في اعمار الدراسة الثانوية بالنسبة للطلاب اليهود ١٢ بالمئة على الاقل .

ويوجد مئة طالب عربي فقط في المعاهد العليا بالارض المحتلة، اي اقل من واحد بالمئة من مجموع الطلبة اليهود بينما كان ينبغي — اذا تحدثنا بالارقام — ان يكونوا ١٢ بالمئة .

ورغم ذلك فالمشكلة هنا اكثر تعقيدا : فالمدارس الابتدائية العربية مرغمة على اعطاء برامج دون مستوى المدارس الابتدائية اليهودية، وهذا وحده يحول دون عدد كبير من الطلاب العرب ودون ان يتابعوا دراساتهم الثانوية .

وحتى في المدارس الثانوية يتلقى العرب دروسا في اللغات الاجنبية دون المستوى المطلوب ، الامر الذي يؤدي الى عجز الكثيرين منهم عن النجاح في الشهادة الثانوية ، وعجز اولئك الذين ينجحون عن اكمال دراساتهم العالية .

وقد اثبتت احصاءات رسمية ان غالبية الطلاب العرب يغادرون مدارسهم بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة من اعمارهم للعمل على كسب اللقمة ، وان ٩٠ بالمئة من الطلاب العرب الذين يدخلون المرحلة الدراسية الثانوية يغادرونها الى العمل وليس الى اكمال الدراسة .

ان عشرة بالمئة فقط من مجموع الطلاب العرب ينجحون كل سنة في الشهادة الثانوية ، واولئك الذين يستطيع وضعهم الاقتصادي والاجتماعي تأهيلهم لدخول الجامعة يتعرضون الى سلسلة من الشروط تمنعهم من الدراسة في كليات معينة — اما الكليات المخصصة للدراسات الادبية الشرقية فهي تعاني من نقص فادح في المؤهلات ، وهو نقص متعمد .

وبعد تخرج هذه القلة القليلة فانها تتعرض لسلسلة اخرى من الاضطهادات السياسية والادارية ومحاولات مستمرة لتحطيم معنوياتها ومؤهلاتها ، وغالبا ما تكون البطالة هي المصير ، او التوظيف ، في احسن الحالات ، في مجالات غير مجالات اختصاص المتخرج .

ولقد ادى هذا الوضع الى تحطيم مستمر لكل الاجيال الثقافية العربية التي كانت على وشك لعب دورها الرائد ، وكانت نوعية الثقافة العربية المفروضة على السوق العربية تعمل ، من جهتها ، في تحطيم المستوى الثقافي العربي من ناحية اخرى .

ان الوضع الثقافي العربي في الارض المحتلة يخضع دائما لمحاولات يهودية مستمرة لجر المثقفين العرب الى داخل الدائرة الصهيونية — ولا يهم السلطات الاسرائيلية ان ينتسب المثقف العربي الى المعارضين الصهاينة او الى الموالين الصهاينة ما دام يصدر عن قاعدة غير الشخصية العربية .

وفي سبيل ذلك فهي تسمح للصحف ان تصدر بالعربية ، اذا كانت ترتبط بمؤسسة صهيونية ، وتسمح للكتب الصادرة في العواصم العربية ان يعاد طبعها في الارض المحتلة اذا لم تكن تتعامل مع مسألة القومية العربية .

واكثر من ذلك فهي تشجع اليهود القادمين من البلاد العربية على نشر انتاجهم بالعربية زيادة في التشويش ، وليس من قبيل الصدفة ان تكون ثلاث من الصحف الست عشرة التي تصدر بالعربية في الارض المحتلة انما يحررها ويصدرها يهود قدموا الى اسرائيل من البلاد العربية ، كما انه ليس من قبيل الصدفة ان تكون اول رواية عربية طبعت في اسرائيل هي رواية ابراهيم موسى ابراهيم، اليهودي العراقي.

اذن يوجد في الارض المحتلة ١٦ صحيفة تصدر بالعربية ،واحدة منها يومية (وهي للحكومة) وثمان اسبوعية ، وسبع شهرية ، كلها على الاطلاق تتبع الاحزاب الاسرائيلية الصهيونية وتعبر — داخل الدائرة الصهيونية — عن وجهة نظر موالية او معارضة .

وتقدر السلطات الاسرائيلية عدد الذين يكتبون بالعربية ، من شعراء وكتاب ، في الارض المحتلة ٢٨ شاعرا وكاتبا بينهم ٨ من اليهود الشرقيين .

ولكن الذي صدر وطبع من الكتب العربية في الارض المحتلة بعد ١٩٤٨ لا يتعدى خمسة عشر ديوانا شعريا وحوالي خمس روايات ، لا داعي للحكم هنا على اكثرها — ما دامت قد حصلت قبل ذهابها للسوق على اذن الرقيب .

في السنوات الاولى لقيام اسرائيل لم ينشر سوى شعر غرامي ، لم يلاق اي تجاوب مع الجمهور وظل كاسدا : كانت ثمة محاولة منذ البدء لتحويل الانظار الى هذا النوع من الشعر ، ومعظم الذي نشر كان ركيكا وتافها شكلا ومضمونا ، ولكن قدوم عام ١٩٥٢ بثورة تموز المصرية احدث الهزة المرتقبة .

وبعد ١٩٥٢ فوجئت الصحف اليهودية التي اعتبرت ان ثلاث سنوات من الشعر الغرامي قد اثبتت شيئا ، بتغير نوعي حاسم في الرسائل التي بدأت تتلقاها بعد ان اعلنت استعدادها لنشر اي انتاج شعري لعرب الارض المحتلة .

واتخذت الصحف اليهودية قرارا بعدم نشر هذا الانتاج القومي فلجأ العرب الى اقامة امسيات شعرية في القرى كانت تنقلب دائما الى مظاهرات وطنية بسبب شدة الاقبال والحماس ، وبعد ان سيق معظم الشعراء العرب الذين شاركوا في هذه الامسيات مرات عديدة الى حكام فراهم العسكريين للاستجواب صدر قرار بمنع اقامة مثل هذه الامسيات، وهو اغرب قرار يمكن ان يتخذه نظام من الانظمة .

***

على ان هذا القرار لم يكن ليستطيع ايقاف الاندفاعة التي انتظرت خمس سنوات لتنطلق .

ان الذي حدث داخل الارض المحتلة لم يكن في الواقع الا الوجه الاخر لما حدث بين شعراء المنفى الفلسطينيين : ففي حوالي تلك الفترة كان شعر المنفى قد بدأ يتحول ، بالتدريج ، من الحماس الصاخب الى الحماس الحزين ولكن الاكثر املا .. كانت مرحلة ((عدم التصديق)) قد انتهت نهاية مريرة حين صار الواقع اكبر حجما من أن يغطى

— التتمة على الصفحة ٦٥ —

(١) الاحصاءات رسمية وتخص عام ١٩٦٥ .

صدر حديثا

الخطر اليهودي

بروتوكولات حكماء صهيون
تأليف محمد خليفة التونسي

اول ترجمة عربية امينة كاملة مع مقدمة تحليلية وتقدير من المرحوم الاستاذ عباس محمود العقاد

الناشر : دار الكتاب العربي — بيروت

أدب المقاومة بعد الكارثة

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣ ـ

بالمجاهل .. وقد حدث الشيء ذاته ـ مع حفظ الفروق التي تفرضها الظروف ـ بين الادباء العرب في الارض المحتلة : فقد انتهت اوصلة عدم الصديق التي فتتل شعر الغزل في تغطية ضحاكمها ، ووجد الشعراء العرب انفسهم ـ على وجه الخصوص ـ يواجهون ما بات يصطلح على تسميته الآن بـ « القضية » ..

ولكنهم واجهوها من الطرف المقابل لذاك الذي اختاره ادب المنفى فاختاروا التحدي .

***

سوف ننتظر عشر سنوات اخرى حتى يقدم لنا شاب من البروة ، في فلسطين المحتلة ، اسمه محمود درويش ، نفسيرا رائعا لحلقة كانت مفقودة في تلك الفترة التي شهدت قفزة الادب العربي في الارض المحتلة من الغزل الى الشعر القومي دفعة واحدة .

وسنرى في شعر الدرويش ، الذي قاله في اواسط الستينات ، ذلك المزج العميق ، الهادىء ، المتدفق بين المرأة والوطن ليجعل منهما معا قضيته الحب الواحدة التي لا تنقسم .

ان ظواهر من هذا النوع قد شهدها ـ في وقت لاحق ـ ادب المنفى ، الا ان ادب المقاومة في الارض المحتلة صاغها ببساطة اعمق واكثر قوة على الاقناع ، واكثر قربا من المرأة والارض معا .

سنعود فيما بعد بتفصيل اكثر الى هذه الناحية ، الا ان ما ينبغي الاشارة اليه الان هو ان شعر الغزل الذي تدفق مباشرة وبكثرة في اعقاب الكارثة لم يكن ـ كما يبدو للوهلة الاولى ـ ظاهرة مقطوعة الجذور عن شعر المقاومة .

لقد واجه عرب الارض المحتلة ، فور النمزق الذي جاء مع الهزيمة ، انفصاما مباشرا في علاقاتهم الصغيرة : تركت الغالبية من العرب ارض فلسطين ، فبدا الموقف للقلة التي بقيت نوعا من «الهجران» اصابها في صميم علاقاتها اليومية اكثر بكثير مما اصاب النازحين ، وكان « القضية » تكمن في كل مأساويتها وضخامتها وراء ذلك الهجران ... لقد احتاج عرب الارض المحتلة الى خمس سنوات ليكتشفوا انهم لم يخسروا اهلهم واحبابهم فقط ولكن وطنهم ايضا ، وان « التمزق » كان يبدو في ظاهره اكثر فجيعة لانه اصاب الاحاسيس الفردية اولا ولانهم ـ في نهاية المطاف ـ لم « يتركوا » وطنهم .

لقد تدفق الغزل ليس فقط ليعوض شعورا مريرا بالوحدة والاغتراب ، ولكن ايضا ليشد من جديد علاقات جديدة في ذلك التجمع الصغير الذي اكتشف فجاة انه صار « اقلية » مغلوبة على امرها وسط زحام غريب .

وحين اخذ الاحساس بالهزيمة وفقدان الوطن مداه اردت كل تلك العواطف الى الطرف الاخر فبنت « الاهلية » العربية المغلوبة على امرها ، مع ظروفها الجديدة ، علاقة من نوع جدير هو الاخر باشعارها بكونها ووجودها ، وهي علاقة التحدي والنزال .

بعد عشر سنوات سينجح الدرويش ، وغيره من شعراء الارض المحتلة الشباب ، في تجنيد هاتين العاطفتين اللتين هما ـ في اعماق الانسان ـ عاطفة واحدة ، داخل موقف المقاومة الذي اختاره ادب الارض المحتلة .

الا ان موقف المقاومة لم يكن اختيارا سهلا بل كان معركة يومية مع عدو خبيث يعتبره مسألة حياة او موت .

لقد رأينا كيف تصدى الحكم العسكري بوحشيته التقليدية لسياسة القمع .. الا ان القمع لم يكن سلاح الاغتصاب الوحيد ، فقد كان سلاحه الاخر الاكثر قدرة على الفتك هو سلاح التضليل و « التوجيه » على كافة المستويات .

وكانت مهمة « التوجيه » هذه مهمة مزدوجة : فمن ناحية كانت الدولة تقوم بفسطها عبر جريدتها ومنشوراتها وبرامجها التعليمية وتوجيهها الثقافي ، ومن ناحية ثانية كانت الاحزاب الصهيونية المعارضة تقف للطف ، في موافقها المعارضة المغرية ، من يجتاز افخاخ الحكومة.

ففي عام ١٩٥٨ قام حزب المابام المعارض ، وهو حزب يهمه جدا ان يضمن الاصوات العربية في الانتخابات بأية وسيلة ، بانشاء شركة لنشر الكتب العربية الصادرة في البلاد العربية .

وكان الحزب يعتمد في ذلك على نهم القارىء العربي المعزول من ناحية وعلى رغبته في طبع كتب ذات لون معين هي تلك التي لا تعكس روحا وطنية او تقدميه .. وبالفعل قام في ذلك العام بنشر بعض الكتب الغرامية التي كان معظمها باهتا وباقلام كتاب مغمورين غير موهوبين من حيث الاسلوب وغير جادين من حيث الافكار .

وقد شجع اقبال القارىء العربي الظامىء على توسيع هذه التجارة : فانطلق رجال الاعمال اليهود الى اغراق الاسواق العربية بالكتب التافهة والرخيصة والتي يصطلح عادة على تسميتها «بالمفسدة» وطبع الشيوعيون ـ الذين يتعاملون سياسيا بصورة بارزه مع عرب الارض المحتلة ـ بعض الكلاسيكيات القديمة والمنشورات الماركسية .

ولكن مسألة النشر بقيت محدودة وخاضعة لشروط لا تحتمل : وكانت الأزمة ذاتها تشتد فداحة على الصعيد السياسي . فانشق عن الشيوعيين بعض الاعضاء العرب البارزين ليؤلفوا جبهة « الارض » العربية التي ما لبثت ـ بسبب خروجها عن الطوق الصهيوني المسموح به ـ ان منعت .

عام ١٩٥٩ بدأت منظمة الارض تطبع نشرة ، مستفيدة من قانون اسرائيلي يسمح لاي مواطن باصدار نشرة واحدة في السنه دون اذن من دائرة المطبوعات ، واصدرت الارض عام ١٩٥٩ ثلاث عشرة نشرة كانت تطبعها تحت اسماء مختلفة : الارض ـ شذى الارض ـ صرخة الارض ـ دم الارض ـ روح الارض ... في مطبعة صغيرة في عكا يملكها سليم الزيبق ، وكان عددها الاخير خاصا بعيد النصر في بور سعيد حيث ملأت صورة عبد الناصر الصفحة الاولى ، وحملت الصفحات الاخرى النص الكامل لخطابه يومذاك في بور سعيد .

ويبدو ان هذا العدد اطار صواب المسؤولين الذين لم يكونوا يتوقعون ان تجتاز « الارض » عبر بوابة القانون ، كل شيء فاعتقلت المسؤولين عن النشرة واعقبتها بحملات من الاعتقالات ، ثم اصدرت قرارات نفي بحق قادة المنظمة .

في هذه النشرة التي صدرت ١٣ مرة ، والتي تتداول الايدي العربية في فلسطين المحتلة اعدادها الموشكة على التمزق بقدسية لا مثيل لها ، تنفس شعر المقاومة العربي للمرة الاولى مرتين او ثلاث مرات .

وفي ١٩٦٠ قام الادباء العرب بمحاولة اخرى ، فقد انتهزوا فرصة وجود الكاتب اليهودي بنيامين تموز ، وهو من مواليد فلسطين ويقدم نفسه كصديق للعرب ، انتهزوا فرصة وجوده فعقدوا معه حلفا شفهيا يسمح لهم بمقتضاه ان ينخذوا من بيته منتدى يلقون فيه الشعر ويدعون الى السماع من يقدر على الحضور ويتبنى هو ـ ما دام يقدم نفسه كصديق للعرب ـ مسألة نشره في المكان الذي يراه .

وكانت التجربة الاولى محزنة : فقد اعجب بنيامين تموز بقصيدة القاها شاعر عربي تصف بدمير قريته على ايدي الصهاينة عام ١٩٤٨ ، فترجمها الى العبرية ونشرها ، وفور ان حدث ذلك قدم الشاعر العربي الى المحاكمة بتهمة « العداء للدولة » واقيل من منصبه التعليمي ، ولما لم ينبر اي كاتب يهودي للدفاع عنه مات ذلك الاتفاق الشفهي .

وبعد عام واحد بذل الكتاب العرب في الارض المحتلة محاولة اخرى ، فاوعزوا للروائي اليهودي آهارون مجيد ان يقترح على جمعية الكتاب الاسرائيليين قبول الادباء العرب في صفوفها وتوفير الحماية

لهم ، الا ان هذا الافتراح رد بالاكثرية ، ولم يوافق عليه الا اثنان من اعضائها الذين يزيدون على السبعين .

واحدثت هذه المحاولات جميعها فناعات نهائية بالنسبة للشعراء والكتاب العرب باستحالة ذلك الاسلوب ، وصار من الضروري ان يحدد كل اديب انتسابه بصورة واضحة لا تزييف فيها ولا محاولة تحايل على القانون ـ ويبدو انه في هذه الفترة التي واجه فيها الادباء العرب هذا الاختيار كان على العرب الذين يعملون في السياسة ان يختاروا ايضا ، فانشق الحزب الشيوعي الاسرائيلي الى حزبين : يهودي وعربي ، وابيحت للحزب العربي الذي كان يشرف على جريدة الاتحاد فرصة الاستئثار بها وفتح اعمدتها ، بحد اقصى من الشجاعة الممكنة ، للاقلام العربية التي بدأت تتجه الى الرمز .

وعلى صفحات هذه الجريدة نشر سميح القاسم ، وهو شاعر من الرامة ، اجزاء من قصيدة رمزية هي عمل فني جيد ، اسمها « ارم » من اربعة اناشيد عن العرب في الارض المحتلة بصورة ليست مغرقة كثيرا في الرمزية ، كما نشر كاتب اسمه توفيق فياض مسرحية رمزية اخرى اسمها « بيت الجنون » وقصة اسمها « المشوهون » .. ونشر محمود درويش اجزاء من « عاشق من فلسطين » .

ولكن الميدان الحقيقي لادب المقاومة ظل في ساحات القرى ، والمهرجانات العنيفة ، ونشره الحقيقي الواسع ظل عن طريق الحفظ ..

ومن المصادر القليلة في هذا المجال يستطيع الناقد ان يسجل ملاحظتين اساسيتين :

ـ اولا : الشعر في الارض المحتلة ، عكس شعر المنفى ، ليس بكاء ولا نواحا ولا يأسا ولكنه اشراق ثوري دائم وامل يستثير الاعجاب.

ـ ثانيا : يتأثر الشعر العربي في الارض المحتلة بسرعة مذهلة وبتكيف كامل مع الاحداث السياسية العربية ويعتبرها اكمالا لموضوعه وجزءا من مهماته .

***

فابان العدوان الثلاثي على مصر ، وحتى قبل ان ينجلي الدخان ، القى حبيب قهوجي ، وهو فروي من فسوطة برز اسمه فيما بعد كاحد قادة « الارض » الاربعة (وهو منفي الان في طبريا) ، قصيدة في اجتماع شعبي خاطف في حيفا :

تفجر من صميمي يا قصيدي جريء اللحن تسخر بالقيود
وارسلها مجلجلة تدوي الى ارض القنال وبور سعيد
الى الابطال قد طاروا خفافا لصد الغزو كالقدر المبيد

***

اتنفر بالديار جمال مصر وترجو النصر خفاق البنود
جهنم ارضنا في وجه غاز وفردوس لكل اخ ودود

ثم يقول :

قبعت بقرب مذياعي شرودا وروحي عندكم رغم السدود
تحرق مهجتي وتذيب نفسي معانقة المعارك من بعيد ...

وفي الفترة ذاتها تقريبا ردد عرب الارض المحتلة مع الناصري الشاعر حنا ابو حنا قصيدة اخرى يقول فيها :

بور سعيد الصمود ميناء عز
بك ارست احلامنا المعسوله
وعلى صخرة الخليج على شطيك
تفنى كل الجيوش الدخيله
هتف المجد بالرجال فهبوا
.. اي حر يطيق الحياة الذليله !

وللشاعر محمود سليم درويش ، من البروة التي هدمها اليهود ، ديوان شعر مطبوع اسمه « عصافير بلا اجنحة » عن افريقيا ونضالها التحرري ، لا تخطىء فيه الاذن على الاطلاق النغم الحقيقي المقصود .

ويردد عرب الارض المحتلة للشاعر الدرويش قصيدة اسمها « ليلى من غزة » يصف فيها مصير فتاة عربية من القطاع بعد دخول اليهود اليه في العدوان الثلاثي . وتلتمع في هذه القصيدة شفرة نصل جارحة:

فالشاعر الذي هدمت قريته والذي يعيش في قيود الاغتصاب يمضي في رثاء تلك الفتاة وتحيتها وتشجيع اهلها على الصمود .

وحين هدموا قريته جعل اهل الجليل يرددون معه :

« انا في ترابك يا بلادي رعشة الدفء الغنيه
انا في كروم التين في قلب البراري السجديه
وهنا جذوري في ترابك
كيف تقلعها اياد اجنبيه ؟ »

ويقول في نهاية القصيدة :

« ما جئت ابكي يا رفاق احبتي
حملت جروحي حفد مليون
بارض الغربة ! »

وهو نفسه الذي يقول :

« أأجوع يا بلدي ويشبع غاصب
جعل البقايا من عظامي موائدا
انا ثائر لك يا تراب بلادنا
انا ثائر لك يا شقيقي العائدا
ولكي يظل النهر ثرا صاخبا
ناديت ادفع للمصب روافدا ! »

الا اننا سنشهد تطورا سريعا في شعر محمود درويش هذا ـ وهو تطور مرموق ليس من حيث المضمون والقدرة الشعرية فحسب ولكن من حيث الشكل ايضا . وهو الى جانب الشاعر سميح القاسم سيقود بالتدريج الواعي حركة الخروج عن العمود التقليدي واللحاق بالاسلوب الحديث دون ان يفقد حرارته .

لقد غنى شعراء الارض المحتلة العرب مشاكل البلاد العربية واحداثها ، وتجاوبوا باسرع مما تجاوب كثير من شعراء العربية مع المعارك والصدامات التي حفلت بها الساحة العربية خلال السنوات الماضية .. ليس ذلك فقط بل ان شعرهم يطل على تلك الاحداث من مواقع اكثر املا وصمودا . لقد رأينا قبل سطور تلك المفارقة الجارحة التي جاءت في قصيدة الدرويش عن « فتاة من غزة » حين يشجعها وكأنه هو الطليق ، ويزرع الامال في صدور اهليها وكأنه هو الذي يقف على الطرف الاخر من الجبهة .. ان هذه الروح لم تفارق شعر المقاومة في الارض المحتلة على امتداد السنين ، وللشاعر الدرويش نفسه قصيدة اخيرة يقول فيها :

.. « وانت كنخلة في الذهن
ما انكسرت لعاصفة وحطاب
وما جزت ضفائرها
وحوش البيد والغاب ..
ولكني انا المنفي خلف السور والباب » !

وسرعان ما يطور هذا الاحساس الى مرحلة متقدمة في قصيدة اخرى يخاطب فيها « الفتاة » الفلسطينية خارج الارض المحتلة :

« ونعبر في الطريق
مكبلين
كاننا اسرى
يدي ـ لم ادر ـ ام يدك
احتست وجعا
من الاخرى ؟ »

ويتقدم الى مرحلة اكثر صميمية بعد هذه الاشارة البارعة فيقول لهـا :

« لعلي صرت منسيا لديك ؟
فنغمة في الريح
نازلة الى المغرب
ولكني اذا حاولت
ان انساك
حط علي يدي كوكب ! »

ذلك ان علاقته « بالخارج » هي قدره ، وهي ذات العلاقة التي عبرت عنها قصيدة اخيرة لسميح القاسم عن اليمن :

« لا يعبر بالشباك صباح
الا ونطل من الافق المعبود جراح :
جرح في صدر صعيدي اسمر
وجرح في صدر حديدي اسمر
وجراح في صدر تعز السمراء
تسقي زبيقة الحريه
في سفح الجبل الاحمر
وتسيل ربيعا في عطش الصحراء ..
صحرائي العربيه »

ان التشديد على « صحرائي » العربية هو ذاته ما يجعل الشاعر يظل على المسألة كلها من مواقع اكثر املا وصمودا :

« ... فكهوف الشاي الاسود والقهوة والقات
صارت ثكنات
ورجالي من اسيوط وبور سعيد
كثر كثر
والنصر اكيد ! »

تراه يتحدث عن « قضيته » أم عن « قضية اليمن » ؟ انه بلا شك يقف في الرؤيا الواضحة : الصريحة والحقيقية والبسيطة ، ذات وفقة الدرويش حين لا يجد فرقا بين حبه لوطنه وحبه لامراة .

ان العلاقة بين ادب المقاومة وبين المعارك العربية خارج الارض المحتلة هو تلاحم طبيعي .. لقد رأينا كيف عبر الشعر الشعبي ببساطة عن هذه الحقيقة .. ان الشاعر محمود دسوقي من الطيرة في المثلث يدخل هذا العالم المتلاحم من بوابة التفاصيل الصغيرة فيعطيه طعما اكثر بداهة .. وربما يكون هذا الشاعر بالذات هو اكثر شعراء الارض المغتصبة تجاوبا مع الاحداث العربية : فقد غنى للجماهير على مدار سبع سنين ملاحم الثورة الجزائرية ، وله قصيدة عن رجاء ابي عماشة، واخرى عن ناديا السلطي وثالثة عن جميلة بو حيرد .

وحين نشر الامام احمد قصيدته الشهيرة عن الاشتراكية رد الدسوقي بقصيدة اخرى هاجم فيها الملوك العرب الرجعيين جميعا ، وحين وصل الى الامام احمد قال :

« .. وبشالث لبس العمامة صار في صنعاء شاعر
وطن يباع ويشترى وزعامة للغرب تاجر
وطن يباع ويشترى وزعامة تلهو ، تقامر
هذا يمجد اصله وبجده دوما يفاخر
« انا ابن بنت محمد من جاء مكة بالبشائر »
لو كان من نسل النبي لصرت بالاسلام كافر ! »

***

على ان الشعراء العرب في الارض المحتلة كانوا دائما اكثر تجاوبا بالطبع مع المشاكل اليومية التي كانت تواجههم والتي كانت بالتالي تشكل في مجموعها المحاولة الاسرائيلية المزمنة لتكريس الاغتصاب وسحق الشخصية العربية في الارض المحتلة .

لدينا قصيدة لشاب من اللد عن مشروع المياه الاسرائيلي المعروف الذي ادى الى تهديم عدد من القرى العربية ، ولسوء الحظ ليس لدينا النص العربي لهذه القصيدة .

تقول الترجمة ، بعد ان يصف الشاعر جو القرية العربية :

« .. ثم مات العيد
وتلاشت الاغنية
ولن يكون هناك اي عيد
في العام القادم
الاطفال لن يلعبوا الطرة
الطيور ستصمت
بائع الكعك لن ينادي على كعكه
ولن يخضر الشيخ ثوبا جديدا
لابنته الحسناء

***

اغنية اخرى تلف القرية
اغنية صفراء حزينة
الدموع تسقط من العيون الصامتة
تحولت الحقول الى حرباء
تغير لونها من الاخضر الى البني
الى الرمادي ..

***

الشيخ ابو عليا تعيس
ليس ثمة ثوب اخضر للعيد
انه يوم الحداد
وليس يوم الاغنيات

***

الفجر اسود
الشمس حجر اسود معلق في السماء
تحطمت الحقول تحت اسنان الات وحشية
الاطفال يبكون بوهن
القرويون يقفون عاجزين
ويبكون ايضا . »

ان التصدي ، حين يتجاوز حدود الشجاعة ، لا يجد ما يلجا اليه غير السخرية .

حين تكون عين الظلم مفتوحة على سعتها ويكون المغلوب على امره شجاعا فانه لن يجد في نهاية المطاف ما هو جدي اكثر من السخرية ، على اعتبار ان الوضع المواجه برمته هو وضع لا يمكن اعتباره اكثر من مؤقت : كارثة اليوم ومهزلة غدا .

كتاب المرأة

في كل زمان ومكان

١ ــ الفتيات .
٢ ــ رحمة للنساء .
٣ ــ شيطان الخير .
٤ ــ الموبوءات .

لمؤلفه : **هنري دي مونترلان** ، عضو الاكاديمية الفرنسية .

لمترجمه : **جورج مصروعة**

لناشره : **دار المكشوف** ، بيروت ، ص. ب. ٥٨١

والكتاب باجزائه الاربعة يباع في المكتبات المعروفة في الاقطار العربية .

حين يرى العربي في الارض المحتلة ـ مثلا ـ مجلسا بلديا في قريته يتكرر لمدة ١٧ عاما بصورة عميلة ومزيفة وشكلية ، بماذا يستطيع ان يقول عنه ؟

نايف صالح سليم ، من الجليل ، يعطي جوابا :

ومجلس في قريتي يمشي بحسن النية
مسلم اموره لخالق البرية
اعضاؤه لحبهم في الجاه والحرية
ينسونه لحاجة صغيرة بيتية
وبعضهم قد اكتفى بلقب العضوية
وبعضهم في صمته كالصورة الرمزيه
وقد رأيت البعض من جلساته العصرية
والكل فيها صامت مات على السجية
وان هم تحدثوا ففي حديث ميت
تلفظه افواههم لفظا بلا رويه
يلقونه كأنهم يلقون بالتحية
ويضرخون دائما في الجلسة السرية
قانونهم احكامهم كالحكم الدينية
وكل ما في قريتي يبنى على النسبية
بيونها ، مياهها ، كأرضها الصخرية
نرفعها نزرعها بالاكتف المحنيه
خيراتها تتبع من اجسادنا المضنية
ونحن في الشقاء والضائقة المالية
ولن نظل هكذا نباع بثالكميه
فنحن في عصر انطلاق السفن الكونية !

من هذه النغمة الساخرة يردد اهالي البقيعة قصيدة لمجهول يعارض فيها قصيدة عنترة التي يقول فيها : « انا في الحرب العوان غير مجهول المكان » .

وكان جبر معدي ، المعروف بتعاونه مع سلطات الاحتلال ، قد زار البقيعة فرفض الجميع استقباله او حتى رد السلام ، وحين ترك القرية عارض شاعر مجهول قصيدة عنترة المذكورة على لسان العميل :

« انا في تالي زماني صرت رمزا للهوان
ساء فعلي فقدا يهرب مني من يراني
شاربي طوالته اوصلته عيني وذاني
ولقد هندزت قمبازي على الطرز اليماني
غير ان الله قد قلب مجدي بشواني
ولقد ولى زماني ورماني عن حصاني ! »

ان هذه السخرية الصامدة تستثير الدهشة في الواقع ، فلا شك في انها نابعة عن شعور صميمي بأن ما يحدث هو مؤقت وان التغيير سيقع ذات يوم ، ويمر الكابوس ، ويضحي حكاية ليس الا . انها نبع من صمود عميق في الضمير الشعبي ، وقد اتخذت هذا الطابع اليقيني نتيجة لكونها انبثقت في الريف ، الى جانب الارض ، وليس في المدن ، وهكذا دارت القضية دورتها الرهيبة : فمن حيث توقع العدو ان يحصد الجهل والتخلف والتفكك فاجأه الريف بصمود حقيقي ، شديد العمق ، ينظر اليه يمر فوق سطح الاحداث ، فوق حقيقة الارتباط بالوطن والارض ، عاجزا بحكم طبيعته التاريخية عن التفكير بقبوله ، معتبرا المسألة برمتها من باب البلية التي تضحك ، والتي سرعان ما تمضي .

لدينا لحسن الحظ قصة قصيرة توضح هذا الكلام تماما . وحين نشرت هذه الحكاية في جريدة الشيوعيين العرب مؤخرا لم تنشر كقصة ولكن كخبر ، ولكن يدا فنانة جعلت منها قصة لا نفتقر الى عناصر القصة القصيرة الحقيقية ، وسرعان ما اضحت جزءا يحتفظ به من ادب المقاومة في الارض المحتلة .

لا بأس ، بسبب من قصر هذه الحكاية ، ان نفحصها :

« عندما سجل ضابط المساحة قطعه الارض تحت بند « مختلف عليها » بين الدولة وبين ابراهيم الحامد ، لم يأبه ابو حامد كثيرا ، وقال : « سجل ! سجل ! ما ارخص من الحبر الا الورق ، عن ارضي مش منازل » !

واستمر بعدها يفلح الارض ، تماما كما فعل طيلة خمسين سنة واكثر ، منذ ان كان في مطلع العمر يعاون والده ، ومثل ما فعل بعد وفاته حتى هذا اليوم .

ومرت الايام ، وانقضت سنة او اكثر ـ الله يعلم ـ ونسي ابو حامد او كاد ما سجله ضابط المساحة ، ووصلته دعوة للحضور الى محكمه الاراضي بحيفا للنظر في قضية ارضه « المختلف عليها » .

ونزل ابو حامد الى حيفا في اليوم المعين ، وعطل حامد عمله ورافق والده العاجز .

ونادى احدهم من على عتبة احدى الغرف ، وبصوت جهوري : ابراهيم الحامد تفضل !

ونهض ابو حامد عن المقعد في غرفة الانتظار ومعه حامد الى جانبه ودخلا قاعة المحكمة وبدأت المحاكمة .

قال الحاكم : يا اختيار ! معك اثبات الملكية قطعة الارض قسيمة ٤٨ بلوك ١٩٦٧٠ من موقع الرصيفة من اراضي مجد الكروم ؟

فقال ابو حامد : ايوه يا حضرة الحاكم ، هذي ورثتها عن المرحوم والدي الله يرحم والدك .

قال الحاكم : بلاش كلام فارغ ، بلا والدك بلا والدي ـ معك كوشان ؟ اي ورقه اثبات ؟

ففكر ابو حامد قليلا ثم قال : يا سيدي عمبقلك ورثتها عن والدي وبلحقها معاه وانا ابن خمستعشر سنة .

فقال الحاكم : هذا مش اثبات ، طيب . هذي الارض فيها ستين بالمية صخور ، ولهذا فهي للدولة .

فانتفض ابو حامد : شو ستين شو سبعين ، التراكتور بحرثها كلها يا حضرة الحاكم ، فيها صخرة هون وصخرة هناك في عرق كل واحد تنينة او دالية ، هاي مش ارض طشلق ، أبوي هرا عمره وهو يقلع حجار منها ، وعمري اهترا كمان وانا اقلع .. أي ما لقيت الدولة غيرها تلعب عينها عليها ؟

فقال الحاكم : كمان مرة بلاش حكي فارغ ، الدولة لا تعتدي على احد ، هذا حقها !

فتساءل ابو حامد : حقها ؟ والله حكي ! الدولة غنية يا حضرة الحاكم ، وانا زلمة ما بملك الا لحمي وعظمي ، كيف بدها تسنقويني ؟

فقال الحاكم : اسمع يا اختيار ، انت في محكمة ، بلاش حكي مالوش طعمة ..

وفكر قليلا ثم قال :

مواقف

سلسلة دراسات رائعة بقلم :

جان بول سارتر

في ست حلقات صدرت كلها

١ ـ الادب الملتزم	٥٠٠	ق.ل
٢ ـ ادباء معاصرون	٤٠٠	ق.ل
٣ ـ جمهورية الصمت	٤٠٠	ق.ل
٤ ـ قضايا الماركسية	٤٠٠	ق.ل
٥ ـ المادية والثورة	٤٠٠	ق.ل
٦ ـ جمهورية الصمت	٣٥٠	ق.ل

منشورات دار الاداب

ـ طيب شو رأيك ، الدولة تاخد ستة دونمات وانت تاخد ستة ؟

فهز ابو حامد رأسه وقال :

ـ والله يا سيدي ابوي ما قاللي انه الي اخو اسمو الدولة حتى اتقاسم معو الارض .

فنفر الحاكم : يا اختيار انا رأيي تقبل ، هدا حكمي ، فشو رأيك ؟

فتحرك ابو حامد : والله يا حضرة الحاكم شايف حكمكم زي فرن الخروب اسود اعوج !

وسحب ابو حامد نفسه وخرج يدب على عصاه وهو يتمتم :

« حكم ضل ما ظل » ! »

قد يكون لدينا الكثير من الاعتراضات الفنية ـ اذا شئنا ان نلجأ لبرود الناقد ـ كي ننال من هذه الحكاية . ولكن احداً لا يستطيع ان يمر بها مرور الكرام وينساها . فهي تعطي بايجاز خارق ، ورنة السخرية الشعبية الصامدة تفوح منها ، صورة كاملة شديدة التأثير يندر ان يستطيع حيز مماثل اعطاءها ، فما الذي يهم القارىء ؟ ومن الذي سيهتم بالمقاييس الباردة والنظرية ، في وقت تدخل فيه الحكاية ، كقطعة من لحم ، المعركة الراهنة ؟

لقد لخص ابو حامد ، بحكمته النابعة من ارتباط عريق بالارض ، من الواقع الذي وصفه بانه اهتراء عمر اجيال في الارض ، حقيقة المسألة كما يراها العربي في الارض المحتلة : « قرن خروب اعوج اسود » فهل هناك وسيلة غير وضع النصل الجارح للسخرية الشعبية على رقبة النظام ؟

لقد عكست هذه السخرية نفسها على المناشير السياسية ، وقد تكون مطالعة تلك المناشير من امتع القراءات التي يقدر للمرء ان يحققها، فهي تناول ساخر ، جارح حتى العظام ، مليء بالصور الشعبية التي ، كما يقال في القرى ، لم يملأ الاغتصاب ـ ابدا ـ عينيها !

ان حكاية ابي حامد هي ارهاص مبكر للظاهرة التي جاءت فيما بعد على يدي الشاعر محمود درويش والتي اشرنا اليها فيما سبق .

ان ذلك المزج العميق ، البديهي والبسيط ، الذي عبر عنه ابو حامد بين « الشخص والارض » وهو مستوى متقدم في تطور ادب المقاومة العربي في الارض المحتلة .

في النصف الاول من ١٩٦٦ اودع الشاعر محمود درويش السجن في الارض المحتلة ، ويبدو انه في اقامته الطويلة هناك بلور الصورة النهائية لذلك « المزج » المنطقي العميق بين الشخص والارض، العلاقة الفردية والعلاقة مع الوطن ، الشخص والشعب ...

في السجن ، كما يبدو ، كتب الدرويش « عاشق من فلسطين » وهي مجموعة من القصائد ينتظمها خط واحد : انه ليس نصعيدا عاطفيا مشحونا للعلاقة مع الوطن فقط ، بل هو دمج كلي في القيم التي ظل الشعراء يعتبرونها موزعة ـ بتساو ما ـ بين علاقة الرجل بأية امرأة وعلاقته بوطنه .

ان الحبيبة ، في « عاشق من فلسطين » تضحي في القصيدة شفافة الى حد تضيع فيه معالمها بالارض ، يضحي جمالها هو ايضا ملخصا في كلمة ساحرة : « فلسطينية » .. وتبدو هذه الكلمة اكثر من كافية : « .. واقسم :

من رموش العين سوف اخيط منديلا
وانقش فوقه شعرا لعينيك
واسما حين اسقيه فؤادا ذات ترتيلا
يمد عرائش الايك ..
سأكتب جملة احلى من الشهداء والقبل :
« فلسطينية كانت ... ولم تزل ! »

وهي ليست هذا فقط بل انها المنقذ ايضا ، والمبرر ، وكل شيء :

« لك المجد ..
تجنح في خيالي
من صداك
السجن والقيد
اراك اذا استندت
الى وساد
مهرة تعدو ...
احسك في ليالي البرد
شمسا
في دمي تشدو ..
اسميك الطفولة
يشرئب امامي النهد !
اسميك الربيع
فشمخ الاعشاب والورد !
اسميك السماء
فتشمت الامطار والرعد ..
لك المجد !
فليس لفرحتي بنحيري
حـــد
وليس لموعدي وعد ! »

ان الدرويش يعيد في « عاشق من فلسطين » تفسير المرحلة الاولى من شعر شباب الارض المحتلة العرب الذين صبوا جهدهم على الغزل بعد النكبة مباشرة ، ولم يكن من الممكن ان تجيء الحصيلة مع الدرويش في هذا المستوى من النضج الفني الا بعد ان اخذت التجربة مداها وتعمقت المأساة حتى الصميم فاضحت اكثر شمولا واكبر حجما واعمق جذورا : اضحت هي الحياة كلها بصورة متلاحمة ، يومية ، ذاتية وعامة في آن واحد (*) .

غسان كنفاني

(*) من الفصل الاول من كتاب « ادب المقاومة في فلسطين المحتلة » الذي يصدر هذا الشهر عن « دار الاداب » .

مكتبة المثنى تقدم

كتاب النقائض

(نقائض جرير والفرزدق)

شرح ابي عبيدة وتحقيق المستشرق اشلي بيفان

في ثلاثة مجلدات بالقماش

يطلب الكتاب من **مكتبة المثنى** ببغداد ومن **دار صادر** ببيروت

ومن جميع المكتبات في العالم العربي